كلمة حول المرأة

المرأة.. النصف الوضاء في المجتمع

السيد مقتدى الصدر

هيئة تراث السيد الشهيد الصدر قدس سره

النجف الأشرف

٠٧٨١٦٢٣٩٣٨٠

yahoo.com@١٩٤٣_alturaath

gmail.com@٤٣.alturaath

طبع في:

دار الضياء للطباعة والتصميم

العراق – النجف الأشرف

٠٧٨٠١٠٠٦٠٣

aldhia_company@yahoo.com

www.aldhiaprinting.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس الصراع صراعاً إسلامياً، وليس الاختلاف حول حقوق المرأة اختلافاً إسلامياً على الإطلاق، فإنه وإن تَبنّت الشريعة الإسلامية السمحاء مسألة قوامة الرجل على المرأة إلاَّ أن هذه القوامة في ما خصه الله بالرجل من قوة الجسم والصبر والحِنكة وغيرها من الصفات الخَلقية التي غرسها الله عزَّ وجلّ فيه.

ولعل هناك بعض ما خَصّ الله به الرجل على المرأة من أحكام مترتبة على هذه الصفات - أعني الشجاعة والحِنكة- ومن هذه الأحكام الجهاد والنفقة وغيرها مما هو مسطور في كتب الفقه والرسائل العملية.

وحسب النُّظُم الإلهية تكون المرأة مَشعل العاطفة، ومنبع الأحاسيس المُرهَفة، ونهراً من الرِّقَّة وفيض اللطافة، فهي النصف المُشرق والوضّاء المُكلَّل بالحب والوفاء، مما تحمله

من معاني الأمومة والحنان، وما تحمله من معاني الاحترام والخير للأبوة والأخوة، وما تُكِنُّه من العشق المتأصِّل بينها وبين زوجها الصالح، والوفاء إليه كما هو وفيٌّ لها، وفوق تلك الصفات العظيمة خصّها الله غالبا بالجمال، فغمرها بصفة من صفاته، فإنه كما يقال: «**الله جميل يحب الجمال**»[1].

واستناداً إلى القوانين الكونية والنواميس الإلهية العظيمة فإن البشرية مبنية على الرجل والمرأة، وقد جُعِلَ كلٌّ منهما سبباً في استمرار المسيرة البشرية والحياة الإنسانية عبر مرِّ الدهور، وخصّ كل واحد منهما بصفات لا يمتلكها الطرف الآخر، آخذاً بعين الاعتبار في زرع كل صفة من صفاتهما العدل الإلهي الذي يحكم الكون بأجمعه، فلا ظلم في ساحته جلَّ جلاله وعلا شأنه، فوزّع عليهما الصفات ليقوما بواجبهما أمامه سبحانه وتعالى أولاً، وأمام مجتمعهما ثانياً، وليطبّقا

---

١ - كما ورد في الكافي للكليني، ج٦، ص٤٣٨، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إن اللَّه جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ...**».

الأطروحة العادلة بما لهما من صفات أو سلاح غرسه الله فيهما. قال تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فهدف الرجل كهدف المرأة لا يختلف، ألا وهو الكمال والطاعة والعبادة للحق جلَّ وعلا.

وليس العدل هو السِّمة الوحيدة التي كانت سبباً في توزيع الصفات واختلافها بين الرجل والمرأة، فهناك الرحمة واللُّطف الإلهيان اللذان غمر بهما الرجل والمرأة على حدّ سواء، فما أعظم اللطف الإلهي الذي جعل لكلٍّ منهما واجبه، ورسم لكل منهما طريق تكامله، ولم يخلط الأوراق فتختلط الأهداف، وبالتالي تختلط النتائج.

وأيُّ رحمةٍ ورأفةٍ؟ تلك التي غمر بها المرأة فجعلها جوهرة مَصونة يحفظها الرجل ويعطف عليها ويُكنُّ لها كلَّ الحب والولاء، كيف لا؟ وهي الأم والأخت والزوجة والبنت، بل القرينة له في إسلامه وإيمانه ودينه وعقيدته، تلك سُنّةُ

---

١ – سورة الذاريات، الآية:٥٦.

الحياة ومن يتعدَّ سُنّة الحياة يَلقَ إثماً مبيناً، بل تلك صِبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة؟

جديرٌ بالذكر أن الكلام المتقدم إنما هو على الصعيد الظاهري، أما لو أردنا أن ندخل في ثنايا الباطن قليلاً من غير أن نتعدى على الأسرار الإلهية، فيمكن القول أن الرجل قد وهبه الله الكثير من الصفات التي تساعده على خوض غمار الباطن والبحار الإلهية والعوالم الربانية والأسفار الرحمانية، ومن هنا قد يقال: إن ذلك قد يَصعُب أو يتعذَّر على المرأة التي لا تملك هذه المؤهلات.

لكن لا يخفى أن صعوبة الدَّرْب، ووعورة الطريق، وقلة الرِّفقة، ووحشة الوحدة، والتجرُّد عن الأسلحة، قد يكون ذا فائدة جَمّة، فإن الحكمة في الباطن تقول: «**صعوبة الدرب تُزيد من التكامل**»، إذن بعد أن عرفنا أن طريق الباطن صعب على المرأة فهذا لا يعني عدم جواز خوضها ثنايا هذا السبيل الإلهي، بل إن صعوبة دربها يجعلها مؤهلة للوصول الى

الهدف أسرع من الرجل إلاَّ أن خطورة الزَّلل فيه والميل عنه أكثر واحتمالها أرجح.

ومن هنا فإن امتلكت المرأة الإرادة الكبيرة والحِنكة اللازمة بواسطة التعلُّم والتكامُل التدريجي فإنها ستكون مثالاً لمجتمعها من النساء، بل ومن الرجال في بعض الأحيان، لذا نسمع عبر مرّ التاريخ بالنساء الأربع الكاملات وبالأخص مريم بنت عمران عليها السلام، التي قال الله سبحانه وتعالى في حقها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1]، وقال أيضا عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[2]، ونستنتج من

١ - سورة التحريم، الآية:١٢.

٢ - سورة آل عمران، الآية: ٤٢-٤٣.

هاتين الآيتين أن المرأة تستطيع وبكل قوة وهِمَّة وعزم وإصرار أن تكون من العابدين الساجدين الراكعين، بل الأمر أكثر من ذلك، فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾، أي اختارك من دون النساء وجعلك من المصطفَيْن، وهذا غاية الكمال في القرب من الله عز وجل.

ويزداد هذا المعنى قوة ووضوحاً وتأكيداً في سيدة نساء العالمين، بضعة المصطفى فاطمة الزهراء الراضية المرضية (صلوات الله وسلامه عليها)، فهي سيدة النساء على الإطلاق بعفَّتها وعلمها وعصمتها وحجابها وكمال دينها، حتى أنها لم تَكُ تُكلِّم الرجال إلاَّ من وراء حجاب، فازدان بها الحجاب وعَلَت بها العِفَّة وتفاخرت بها العصمة.

فيا نساء الإسلام ويا نساء العالم تلك أُسوتُكُنَّ الحسنة فَسِرْنَ نحوها، وتكامَلْنَ بكمالها، عسى الله أن يرفَعكُنّ مقاماً عَلِياً.

ولا يخفى أيضا أن كل حامل للسلاح - إن صح التعبير - أو كل مالك لصفات الحُسن يستطيع استعمال سلاحه أو صفاته بالخير تارةً وبالشر أخرى، والأول يسمى الكمال والآخر يسمى التسافل والانحطاط والزلل، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]، فإنه من أعطي القوة والهِمَّة والصفات والمؤهلات واستعملها في موردها الذي أراده الله سبحانه، كان حقاً على الله أن يجعله من المؤمنين المرضيين، ومن استعمله في الباطل والتَّسافل فقد احتمل إثماً وبهتاناً عظيماً.

ولْنَتأمَّل هذا المعنى في هذه الآيات الكريمات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

١ - سورة الكهف، الآية:٢٩.

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ
تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾[1]، فعلى الرغم من أن زوجات النبي صلى الله عليه وآله رضوان الله تعالى عليهن - هُنَّ المقصودات بصورة وأخرى بتلك الآيات الكريمة- إلاَّ أنه يمكن التجريد عن بعض الخصوصيات لا كلها لتعميمها على جميع النساء اللاتي يَرِيْنَ الحق ويَرِيْنَ الباطل، ويستطِعْنَ الاختيار بينهما.

ولا ينبغي لنا التعمُّق أكثر من ذلك في هذه الكلمة المختصرة، إلاَّ أنه لا يصح ولا يجدر بالمؤمنات أن يجعلنَ

---

١ - سورة الأحزاب، الآيات:٢٨-٣١.

من الصفات الإلهية التي غرسها الله فيهِنّ أداة لنشر الباطل، فهُنَّ معرّضات لوسوسة الشيطان، كما أن الرجال معرّضون لذلك، وكما هم يستعملون صفاتهم بالباطل، كالذي يؤتى القوة وبَسطَة الجسم والعلم، ولا يستعمله إلاَّ بالكفر والظلم والعدوان والإرهاب والاعتداء على الآخرين ونشر الشبهات والعياذ بالله.

في ضوء ذلك، يتَّضح أن لكلٍّ من الرجل والمرأة صفاته الخاصة، والتي ينبغي أن يستعملها في الحق والتكامل في درجات العلم والأخلاق، إلاَّ أن هذا لا يعني بالضرورة أو قل ليس كاشفاً عن عدم وجود صفات مشتركة بين الرجال والنساء. واختلاف أحكامهم في بعض الأحيان ليس كاشفاً عن عدم وجود أحكام مشتركة، بل نستطيع القول أن الرجل إن كان قَيِّماً على المرأة في ما يختص بصفاته، فان المرأة قَيِّمَةٌ على الرجل فيما يخصّها من الصفات.

وما ورد من نقد للنساء في بعض النصوص والروايات إنما هو للتنبيه والتحذير ليس إلاَّ، فإنه ورد الكثير من النقد

للرجال أيضاً، فان كان نقد المرأة يعني نقصها وسوءها فان نقد الرجال يعني نقصهم وسوءهم أيضاً! وحيث لا قائل بالثاني فلا قائل بالأول.

ثم إنه يجب الالتفات إلى أمر مهم آخر، وهو أن تأثير المرأة في المجتمع قد يكون أكثر من تأثير الرجل فيه، وهذا من عدة جهات أو أسباب:

أولاً: إنها الوعاء الذي يحمل الجنين، فهي ذات تأثير فعّال على حياته فيما بَعْد بكل تأكيد.

ثانياً: إنها المباشر الأهم لتربية الأطفال في الغالب، وبالتالي يكون تأثُّر الأطفال بأمهاتهم أكثر من تأثُّرهِم بآبائهم.

ثالثاً: إنهنّ المرضعات والمغذيات لبراعم المستقبل، وهذا يضفي عليهم نوعاً من التأثير الايجابي أو السلبي على المدى البعيد في حياتهم المستقبلية.

رابعاً: لكونهنّ الشريك لحياة الرجل، أو قل هي الشريكة لزوجها في التكامل أو التسافل والعياذ بالله.

خامساً: لها التأثير الكبير في محيط العائلة (نواة المجتمع) التي هي بدورها تُكوِّن المجتمع شيئاً فشيئاً.

وما إلى ذلك من أسباب تكوينية واجتماعية وغيرها.

ونحن نرى بأمِّ أعيُننا ما يجري في المجتمعات التي آلَتْ المرأة فيها إلى الفساد والانحطاط والتميُّع، وما إلى ذلك من نتائج سريعة في إفساد المجتمع وانحطاط الكثير من الرجال بسببهنّ، وأما في المجتمعات المحافظة والملتزمة فلا نجد مثل ذلك بطبيعة الحال.

ثم إن الشرع المقدس حين جعل شهادتها نصف شهادة الرجل، فهذا يعني أنه رفع بعض المسؤولية عن كاهلها، وهو أيضاً من باب الرحمة واللطف بها، فإن رفع المسؤولية أفضل من وضعها كما لا يخفى، وإذا شرع تفضيل الرجل على المرأة في بعض الأحكام كما في القصاص وغيره، فإنه إن دل على شيء فإنه يدل على أن المرأة تمتلك الصبر والتضحية أكثر من الرجل من هذه الناحية، وأنها أكثر تسليماً وطاعة لله وأحكامه في هذه الموارد.

كما أن فرض الحجاب على المرأة انما هو لصونها وتكريمها وحمايتها وعزتها وليس العكس، فأي محبة وعزة تنتُج من أن يوافق الزوج على عَرض زوجته أمام الرجال وهي سافرة أو كاشفة عن بعض جسدها؟! فإنه لو أحبها بصدق لاستخلصها لنفسه ومَنَع الآخرين منها، وأي عقل يجعل المال أفضل من النساء فيستخلص المال لنفسه ويبذل نساءه لغيره؟!!

وأيٌّ من النساء لا تفضل أن يستخلصها زوجها لنفسه؟! فإن هذا دليل واضح منه على محبتها وعشقها وعدم الرغبة بغيرها إلاَّ ما أحل الله، فإن عمل المرأة مَوكولٌ لها، ولها كامل الحرية في جميع أعمالها ما لم يستلزم منكراً أو حراماً، فيكون الرجل عليها رقيباً كما أنها رقيبة على أعمال الرجل، إذ لو فعل منكراً صار لزاماً عليها أن تردعه بما تستطيع إذا أصر على المنكر.

ولو كان الزواج الثاني للرجل على سبيل المثال فيه مظلمة للزوجة، فهذا كافٍ لأن يجعله غير مقبول شرعاً، فإن تعدّد الزوجات مقيد ومشروط بالعدل والمساواة، هذا من جهة،

ومن جهة أخرى فإن عدم تجويز تعدُّد الزوجات أو عدم سَنّهِ سوف ينتج سفاحاً في أكثر المجتمعات، فإن الرجل إذا استطاع الزواج ثانياً فهذا يمنعه من خيانة زوجته كما يعبرون، كما في المجتمعات الغربية التي يلجأ فيها الرجل إلى السفاح والزنا لعدم استطاعته الزواج ثانياً، وفي كل ذلك فهو يجعل شريكة حياته بمنأى عن فكره وحُبِّه وإخلاصه، وإلا لما فكر في أن يلجأ إلى المحرمات بعيداً عن حليلته.

ولا يخفى أن الشرع قد جعل قيوداً وشروطاً وحقوقاً وواجباتٍ مع تعدد الزوجات إن تعدّاها الرجل فهو ظالم، ويقع الظلم على المرأة المسكينة، فكفاك أيها الرجل ظلماً لمن أحبتك، وان أردت سُنَّةَ الله فهذا لا يعني أن تظلم شريكتك، فأرضها أولاً، ثم خذ قسطك من الدنيا وخذ ما أحل الله لك من الزوجات، وإلا فأحجم.

سيدتي المرأة صوني نفسك تُصاني، وتقرَّبي إلى الله تهتدي، والتزمي أوامر الله يهتدي مجتمعك، فإن المرأة إن كانت محجَّبة مطيعة لشرع الله تعالى فهذا يعني أن الرجل

سوف لن ينظر إلاَّ إلى حليلته، وبالتالي، يعني: بناء عائلتك على أُسُسٍ قويمة ومتينة، فيبتني المجتمع على أركانه كما أراد الله.

تجدر الإشارة إلى أني لم أكتب هذه السطور المتواضعة إلا عرفاناً بمكانة المرأة الصالحة في المجتمع، وما يثمر عنها من خير في حياتنا الإنسانية، فهي المرأة التي حملتنا وهناً على وَهنٍ، وهي التي شاركتنا أعواماً وسنيناً في كدح العيش، والمرأة التي شاركتنا في بلاءات المجتمع وصعوبات العائلة وغيرها.

فيا أختاه! هذه أسطر كتبتها، عسى الله أن يجعلنا وإياك في كَنَفِ الهداية ونور العصمة المحمدية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف خلقه محمد وآله الأطهار المنتجبين الاخيار.

مقتدى الصدر

١ ذي القعدة ١٤٢٩